

والخرزعبلات ، والتي أدلى بها فلاسفة الأغرريق الأول أمثال طاليس وأنكسندر<sup>(١)</sup> . والحكومة في سلطانها ، والأسرة في نظامها ، والملكية في احترامها مدينة للخرافة إلى حد كبير : فالملك مسموع الكلمة مطاع الأمر ، لأن الخرافة شاعت قديماً أن تضعه في صف الآلهة والأرباب ؛ والزواج محترم لأن الزنا والفسوق ما كانت لتغضب الله والناس فقط ، بل ربما استتبعتم هلاك الحرث والنسل وخراب القرى والأمصار ؛ والملكية مقدسة لأن الاعتداء عليها كان يثير غضب المردة والسياطين والقوى الخفية المتصرفة في هذا العالم<sup>(٢)</sup> ؛ وإذا بحثنا عن منشأ كثير من عاداتنا الاجتماعية وجدناها ترجع إلى أصل خرافي : فتفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى يفسر في غالب الظن مبدأ من مبادئ السحر والشعوذة ؛ والمعللة الأسبوعية التي ننعم بها الآن لم تكن إلا لأن الانسان اعتقد أن هناك أوقات نحس وأوقات سعادة<sup>(٣)</sup> وفوق هذا وذلك فالخرافة تغذي ناحية نفسية لا يصح تجاهلها ، ذلك لأن الانسان لا يبني داعية العقل والنطق فقط ، بل هو خاضع لخياله وعواطفه . وللخيالة مبادئ تسبح فيها ، وعالم يتفق مع ميولها وأهوائها ؛ وما الخرافة إلا مظهر من مظاهر هذا العالم وأثر من آثار هذا الصنع ، وحياة لاتتمتع إلا على الأسس الطبيعية والبراهين العقلية . كما ينادي بها أصحاب الرواق — جافة قطما ولا وجود لها إلا في أدمغة زينون وكريزيب

ليس هناك شك في أن الانسان مستمد بطبعه لقبول الخرافة ؛ فهو ميال دائماً لأن يعرف أكثر مما يرشده اليه بصره وعقله ، ولأن يخلق بجانب الحقائق الحسية والفكرية سوراً أخرى تحقق رغبة من رغباته ، أو تسد ناحية من نواحي نقصه<sup>(٤)</sup> . هذا إلى أنه في ضعفه يحاول أن يمتاز بقوى خفية — وإن تكن خيالية — في التغلب على مشاق الحياة . ومن هنا كان التعاقب بالخرافات عالمياً ، وكان قدر منها مشتركا لدى عامة الشعوب . فالسحر والتنجيم والشعوذة من خرافات الانسانية بأسرها ، قام عليها معظم تقاليد الأمم المتوحشة ، وتشبث بها الناس بمد أن خطوا خطوات

## الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومي مذكور

الخرافة حليلة الجهل ، وأليفة الأوهام ، عنوان ناقص الثقافة ، ورضى ذوى العقول الضعيفة ؛ كالخشرات الدنيئة ، لا يجلو لها العيش إلا في الأماكن الظلمة ، أو كالحشائش الضارة ، لا يعظم نموها إلا في التربة الفاسدة ؛ تقف في طريق الحق ، وتقادم كل تفكير . وكأنها ذات قوة سحرية تنشى الأبصار ، وتعم الآذان ، وتقتضى على كل ماني المرء من عقل وروية ؛ أو كأنها مظهر لوجي خفي يستولى على النفوس والأفئدة . وكيف لا والسحر خرافة لبست ثوب الفن ؟ والخرافات في أغلبها اكتنمت بكساء الدين ، لذلك لبي نداءها ممتقوها ، ونزل عند ارادتها من آمن بها ، ولو أدى ذلك إلى ارتكاب جرائم شنيعة ، وازهاق أرواح بريئة ، وتبديد ثروات طائلة . وكما باعدت الخرافة بين الصديق وصديقه ، والمرء وزوجه ، والأخ وأخيه ، والابن وأبيه . وقد لا يقف عدوانها عند الأحياء ، بل يتعداهم إلى الأموات ، تغربت من جرائمها قبور ، وانتهكت حرمت . وبذا كانت من أشد أخطار الانسانية واكبر أعداء الحضارة والمدنية . وما أصدق مونتيسكيه (Montesquieu) حين يقول : « أعد نفسي أسعد الأحياء إذا استطعت أن أبرئ الناس من خرافاتهم<sup>(١)</sup> »

بيد أن الخرافة لبست شراً كلها ؛ ففي حجرها درج العلم ، وتمت كنفها نما كثير من النظم الاجتماعية . فالعلوم في نشأتها كانت سلسلة خرافات متصلة ، وطائفة غير ملتزمة من الظنون والأوهام ؛ وما الكيمياء الحقيقية إلا وليدة الكيمياء الصناعية<sup>(٢)</sup> وما الفلك في قواعده وأصوله إلا ريبب العرافة والتنجيم ، وما الطب إلا نتيجة وصفات بلدية هذبت ، وتجارب عادية سلك بها سبيل البحث والتحجيص<sup>(٣)</sup> ؛ وما طبيعة اليوم المملوءة بالأصول والقوانين إلا الثمرة الناضجة للآراء الخاطئة المشحونة بالأوهام

(1) Rey, La jeunesse de la sciensa grecque, 19 et suiv.

(2) Frazer, La Tache de psyché, Paris, 1914.

(3) Encyc. Britannica, XI<sup>ve</sup> ed., T. 21, p. 578.

(4) Encyc. of religion and ethics, vol. 12, p. 122.

(1) cité par S. Reinach dans la Tache de psyché, XI.

(2) Pattison, The Story of Alchemy and the Beginings of Chemistry, London, 1902.

(3) Heße et Gleyze, Nations de Sociologie, 252 et suiv.

أموراً يصعب علينا أن نخرج بها عن دائرة الخرافة . فكثير من المثقفين يؤمن اليوم بتحضير الأرواح ، ويجتهد في أن يفسره تفسيراً علمياً . ولا نستطيع أن نقول إن الخرافة كل ما ناقص الدين ، فإن هناك أشياء اكتسبت بكساء ديني كامل في حين أنها خرافة صريحة . وفي شيء من التقريب يمكن القول بأن الخرافة كل فكرة أو عقيدة فردية أو جماعية تفسر ظواهر العالم على نحو لا يلتئم مع العقل ولا مع درجتنا العلمية الحاضرة . وعل في سرد بعض الأمثلة ما يعيننا على تفهم الخرافة في حقيقتها ومدلولها . من ذلك أن بعض الأوربيين يرى أن كب الملح نذير سوء . وأن اجتماع ثلاثة عشر شخصاً على مائدة واحدة مؤذن بأن واحداً منهم سيموت في العام نفسه ، وأن تقديم السكين يقطع المودة ، وأن وضع الكنسة في الماء مجلبة للمطر . وخرافاتنا المصرية التي هي ميدان فسيح للدراسة غير متناهية العدد ؛ ومن أشهرها حديث « الشمامة » و« عرعاع أيوب » وكل البصل أيام شم النسيم ، وصناعة التبخير أو « الزار » والرق والتمايذ . وعبثاً نحاول إن شئنا أن نأتي هنا على مختلف الخرافات العالمية أو المصرية . وفي مقدورنا أن نلاحظ بوجه عام أن الخرافات تكاد تتمركز حول نقطتين هامتين : المعتقدات والمبادئ الدينية ؛ وهذا ما سماه الألمان Aberglanbe

لقد شغل الباحثون بالخرافة منذ زمن بعيد ؛ فبينوا مضارها السياسية والدينية والاجتماعية ، وعملوا على إحصاء الخرافات المتعددة وإثباتها في قواميس خاصة ( نذكر من بينها : le Dictionnaire infernal ) ، وتقسيمها إلى فصول وأنواع مختلفة (١) . ومن أقدم من كتب في هذا الباب ؛ لكريس Lucrèce + 51 ov-jz وفلو طرخس Plutarque + 125 والأخير بوجه خاص هو أول باحث درس الخرافة في شيء من التوسمة ونقدها نقداً مرأ ؛ وربما كان متأثراً في ذلك بما ساد عصره من خرافات لا حصر لها (٢) إلا أن الفضل في دراسة الخرافة دراسة علمية منظمة يرجع إلى علماء الاجتماع المحدثين الذين تولوها بالشرح والتحليل . فبحثوا عن أصلها ، وسبيل انتشارها ، وأثرها في المجتمع ، وطريق علاجها . وكان لهم في ذلك مؤلفات قيمة جذابة تخص بالذكر

(1) La grande Encyc., T. 30, p. 717.

(2) Masson, Lucretius, Epicurian and Poetics, London, 1907. — Plutarque, de Superstitione, bonne tr. ang. par P. Holland, 1603.

فسيحة في سبيل العلم والمدنية ، ولا يزالون خاضعين لشيء من سلطانها إلى اليوم . وحديث القصور الزبرجدية والآرائك المسجدية التي بناها المردة والشياطين في أرض نائية وجزر منقطعة ، بهر الانسان الهمجي وشغل عقول بعض أبناء القرن العشرين (١) . والتناؤل والتشاؤم والطيرة كانت من خرافات الأغرقيين والرومان والعرب ، وحتى الساعة بقول عامتنا : « خذوا قالكم من قبالكم » ، وإذا نسموا نعيم غراب رددوا الجملة المشهورة : « اللهم اجعله خيراً » . وبديهي أن انتشار الخرافة يختلف من بلد لآخر تبعاً لدرجة الثقافة ، ونمو التربية الدينية ، وطرق الحكم السياسية من ديمقراطية واستبدادية ، وظروف اجتماعية أخرى متعددة . ويحاول بعض الباحثين أن يعقد موازنات بين الأمم في هذا المضمار ، فيزعم مثلاً أن المشاهد السينمائية في إنجلترا وفرنسا تؤذن بأن الشعب الإنجليزي إلى الغريب أميل ، وفي الخرافة أرغب . وهذه الموازنات وإن تكن مثار شك كبير ، ربما وصلت إلى نتائج شبيقة إن عني بضبطها ومحتها . وإذا كنا نتحدث عن الأفراد والشعوب واستمدادهم لقبول الخرافة ، فيجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة هامة ، وهي أنه لا يوجد شخص يسلم بالخرافة التي يعتنقها في حين أنه متيقظ دائماً إلى خرافات الآخرين . وقد يصل بنا الأمر إلى أن نقبس الشيء الواحد بمقياسين مختلفين ، وننظر اليه بمنظارين متباينين ، فإن كان مما عرفناه وألفناه أضحي ديناً وعقيدة ؛ وإن اتصل بتقاليد غريبة عنا استنكرناه وتبيننا ما فيه من تضليل وتخريف ؛ وكأن ما هو دين في رأيك خرافة في رأي غيرك وبالعكس (٢) ؛ وعل ذلك راجع إلى أن الخرافة تسلب ممتنقها قوة النقد والحكم الصحيح ؛ هذا إلى أنها نسبية وصعبة التحديد ؛ فما كان عقيدة بالأمس أصبح خرافة اليوم ؛ وما هو صواب شرق جبال البرانس بعد خطأ غربها ؛ ومقياس الخرافة — كمقياس الحق والباطل — يتغير بتغير الظروف والأزمنة

بمز علينا حقيقة أن نعرف الخرافة تعريفاً شاملاً ، وأن نضع لها حداً ثابتاً . فلا يمكننا أن نقول إنها كل ما خالف العلم الصحيح ، فإن هذا العلم نفسه لما يحدد تماماً ؛ على أنه قد يقصد

(1) Larousse, voir superstition.

(2) Encyc. of religion, vol. 12, p. 120.

وها هي ذي خرافة تفني لتحل محلها خرافة أخرى ، فلتن يادت الخرافات الوحشية لقد أعقبتها خرافات حضرية . على أنه ليس تمت ضير - على ما يظهر - في أن تنطق أمة من الأمم بقدر محدود من الخرافات ، فإن فشت الخرافة وسدت طريق التفكير والحكم الصحيح فهنا اللداء القاتل والخطر المحقق

وكأني بهذه الحال تنطبق تماماً على ما يعانيه بلدنا اليوم . فنحن فريسة للخرافة في طماننا وشرابنا ، في ملبسنا ومسكننا ، في حركاتنا وسكناتنا ، في مختلف عاداتنا وتقاليدها ، بل وفي آرائنا ومعتقداتنا ، وكثيراً ما وقفت الخرافة عقبة كأداء في طريق تقدمنا العقلي والجسمي ، والخلقي والاجتماعي . وفي رأينا أن خرافاتنا التفشية ترجع الى أسباب كثيرة أهمها :

(١) طريقة الوعظ والارشاد والتربية الدينية الفاسدة ،  
 (٢) حياة القهر والاستبداد ، (٣) الفقر (٤) والجهل . لقد سلكت طائفة من وعاظنا مسلكاً خاطئاً للغاية ، وأرسلت لنفسها العنان - طمعاً في الترغيب أو الترهيب - في سرد خرافات يابها العقل والدين ، وخاصة ما اتصل منها بالحشر والنشر واليوم الآخر وعمدتها في ذلك مجموعة ضارة من كتب القصص والتفسير الملوثة بالاسرائيليات والآثار الضعيفة أو المسكونية . وكان علم هؤلاء الوعاظ خرافة كله ، أو كأنهم يحيون على حساب الخرافة فهم يثبتون دعائمها ويالفتون في نشرها . وليست حياة القهر والاستبداد بأقل أضراراً في نشر الخرافة من هذا الوعظ الفاسد ، فالغلوب على أمره يبحث عن قوى خفية يزعم أنها تعينه على التخلص مما هو فيه . كذلك نرى الخرافة الفقراء بأحلام ذهبية وآمال خلافة ، وتسبغ عليهم من الخيال ما يعجزت الحقيقة عن الوفاء به . ويحرم الجهل أخيراً عامة الناس من أن يفتحوا أعينهم للضياء ، وقلوبهم للرجاء ، لذلك كانت الخرافة والجهل نوعين متلازمين ، وأخوين لا ينفصلان ، وقدما قالوا : الخرافة عمياء تخشى ما تحب ، وتحب ما تخشى . وإذا كنا قد شخصنا اللداء فلنعالج أسبابه الدفينة وعوامله الخفية وحذار أن نحارب الخرافة وجهاً لوجه ونقتصر على تسفيه أحلام منتقبيها ، فانه قد يكون أيسر أن نصرف الملحد عن إلحاده من أن نحول

المخرف عن خرافته .  
 إبراهيم برمى مذكور  
 دكتور في الآداب والفلسفة .

منها كتاب فريزر الذي سنعرض له بالتفصيل في فرصة مقبلة إن شاء الله (١)

إذا تصفحنا التاريخ وجدنا الانسانية نشأت حاملة معها خرافاتها . فالأمم المتوحشة الأولى خضعت للخرافة خضوعاً لها لدين ثابت وأصل مقرر ؛ ولا زلنا نرى أثر هذا الخضوع لدى القبائل الهمجية المعاصرة . وإذا جاوزنا هذه الأمم الى الشعوب التي أخذت من الحضارة بنصيب ، لاحظنا أنها تعلقت بقسط وافر من الأوهام والخزعبلات . وخرافات قدماء المصريين أعرف من أن ينوه عنها . والأغريق الذين بهروا العالم بملهم وثقافتهم لم يكونوا أقل اعتنائاً للخرافة من غيرهم ، وتاريخهم الديني مجموعة خرافات سخر منها فلاسفتهم غير حمرة . وربما كان اللاأدريون Les Sceptiques من أول من رفع الصوت جهرة في وجه الخرافة والاعتقاد الأعمى ، ودعا الى تحرير الفكر الانساني (٢) . كذلك حاربت الديانات السماوية بعض الخرافات وقضت عليها . غير أن رجال القرون الوسطى عادوا - تحت تأثير الجهل وعاطفة دينية عمياء - فارتطموا في بؤرة الخرافة ، وتفنتوا فيها أيماناً تفنن . ثم جاء عصر النهضة والاصلاح الديني فسلكا بالعقل الانساني مسلكاً جديداً وأثارا على الخرافة حرباً شعواء . ولا تزال العلوم الحديثة تشكل بها يوماً بعد يوم ، وتطاردها في كل مكان

والآن يحق لنا أن نتساءل هل الخرافة في سبيل الانقراض ؟ وهل تأمل الانسانية أن تتخلص منها يتاناً ؟ ليس ييسر أن نجيب إجابة شافية على السؤال الأول ، فان الاحصاءات في هذا الميدان ناقصة وغير دقيقة ؛ والخرافة ، وقد تمكنت من نفوسنا وأضحت جزءاً من عاداتنا وتقاليدها ، صعبة التمييز وكثيراً ما بدت بمظهر الشيء المعقول والسلم به . ولكن مما لا شك فيه أن الفكر الانساني تبرأ من خرافات كثيرة كان يرزح تحت نيرها آباؤنا الأقدمون . وكلما بسط العلم نفوذه بدد غياهب هذه الترهات والأباطيل ، فهو من الخرافة كالنور من الظلمة بكشف دخيلها وبين ما اشتملت عليه من خطر وأضرار . ومع هذا يجيل الينا أنه لن يتمكن من انتزاع جرثومتها والقضاء عليها تماماً ، وستبقى الخرافة مابقي الانسان لتسد حاجة من حاجاته النفسية والاجتماعية .

(1) Frazer, *L'avocat du diable ou la Tache de psyché*, tr. fr., Paris, 1914

(2) Bevan, *Stoics and Sceptics*, London, 1913.